

قصيدة المديح النبوي ﷺ بين البوصيري وشوقي (*)

أ.د عبد الفتاح عبد المحسن الشطي

كلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم

الملخص

قصيدة المديح النبوي (صلى الله عليه وسلم)

بين البوصيري وشوقي

بدأت قصيدة المديح النبوي دفاعاً عن الإسلام، مثل ما جاء عند حسان بن ثابت (رضي الله عنه)، أو اعتذاراً عما بدر من جاهلية، مثل لامية كعب بن زهير (رضي الله عنه). في العصر الأموي اقتترنت قصيدة المديح النبوي بمديح آل البيت (رضي الله عنهم)؛ كما وجدنا عند الفرزدق، وعند الكميت بن زيد الشيعي. وسار الأمر كذلك عند المخضرمين من الأمويين والعباسيين، حيث مدح السيد الحميري علياً (كرم الله وجهه) في قصيدته (المُدْهَبَة). وتوالى مديح آل البيت، رثاءً للحسين بن علي (رضي الله عنهما)، ومديحاً لهم، في شعر الشريف الرضي وتلميذه مهيار الديلمي. واستمر المديح في العصر الفاطمي، وبعد انهيار الدولة الفاطمية استبقى صلاح الدين من أعيادها عيدَ المولد النبوي، ذلك الذي كان مجالاً رائعاً لازدهار قصيدة المديح النبوي.

(*) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨١) العدد (٤) أبريل ٢٠٢١.

Abstract

The poem of praise of the Prophet began with defense of Islam, like what is existed in the poems of Hassan bin Thabit (may Allah be pleased with him), or an apology for what happened in the pre-Islamic era, like Lamiyt Kaab bin Zuhair (may Allah be pleased with him).

In the Umayyad era, the poem of praise of the prophet was associated with the praise of the people of the house of prophet Muhammed (may Allah be pleased with them), as we found in the poems of Al-Farazdaq, and Shiite Al-Kumait bin Zaid, and it went like that for the veterans poets Umayyad and Abbasid, when Al-Sayyed Al-Hemyari praised Ali Bin Aby-Taleb (may Allah be pleased with him) in his poetry (Al-Mothahaba).

Praise the people of the house of prophet Muhammed continued, lamenting for Al-Hussain bin Ali (may Allah be pleased with them), and praising them, in the poetry of Al-Sharif Al-Radi and his student Mihyar Al-Dailami.

Praise continued in the Fatimid era, after collapse of the Fatimid state, Salah Al-Din kept the prophet's birthday from its feasts, which was a wonderful field for the prosperity of the poem of prophet's praise.

مقدمة:

احتلت قصيدة المديح النبوي بما تحمل من قيم وروحانيات مساحة كبيرة من ديوان الشعر العربي منذ بدء الدعوة وتوافد أبناء القبائل على الرسول ﷺ، ومرورًا بالأعصر الإسلامية الأخرى حتى عصرنا الحديث.

فلقد بدأ تيار المديح منذ انبرى الصحابي الشاعر حسان بن ثابت للرد على شعراء الوفود يفخرون بكرمهم وسيادتهم، بقصائد فورية مناقضة ومعارضة يشيد فيها بخصال النبي الكريم ومكانته هو وصحبه على نحو ما نعرف عن عينيته الشهيرة.

ومنذ نذر حسان لسانه وجنانه لمديح محمد، والنضال عن دعوته، وهجاء

أعدائه، وتبعه من بعد صحابة آخرون من الشعراء مثل كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. ومنذ آوى كعب إلى كنف الإيمان وإلى النبي معتذراً ومادحاً بلاميته الشهيرة التي احتفى بها الشعراء فيما تلى من العصور.

وإذا كان الرثاء في رأي البعض مديحاً للراحل عن عالمنا، فإن مرثي حسان وغيره في نبي الإسلام ﷺ تُعد في كثير من أبياتها من أوائل شعر المديح النبوي.

وبغير شك كان لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه قسط كبير في خطابته من النثر الفني في مديح صفيه ونبيه بما يعكس مع قوة بيانه عاطفته المتدفقة على نحو ما يلقانا في السُّفر القيم المنسوب إليه: (نهج البلاغة).

حتى إذا كان زمن بني أمية جاءنا المديح النبوي في قصائد تقرن به مديح أهل البيت على نحو ما يلقانا في بعض شعر الفرزدق، وكذا البائية الشهيرة وغيرها للكُميت ابن زيد وهو من الشيعة المعتدلين. ويسير في نفس الاتجاه: أعني مديح آل البيت السيد الحميري، وهو من شعراء دولتي بني أمية والعباسيين المخضرمين، حين مدح علياً بمطولة عُرفت بالمذهبة. ثم يلقانا دعبل الخزاعي، وله تائية في مديح آل بيت النبي ﷺ تبين فضلهم وارتفاعهم على الأمويين. ويستمر هذا التيار الشيعي الكبير في مديح آل البيت قلائد في رثاء صريع كربلاء: الحسين بن علي وآل البيت، لدى الشريف الرضي، ثم تلميذه مهيار الديلمي من بعد.

وفي مصر زمن الفاطميين تلقانا قصائد المديح النبوي خالصة للرسول

صلى الله
عليه وسلم،

« دون أن يكون المديح فيها تابعاً لتعداد مناقب آل البيت، أو رثائهم »^(١). وربما كانت أولى هذه القصائد « القصيدة المعرفة بـ (الشقراطيسية)، نسبة إلى مؤلفها أبي عبدالله محمد ... الشقراطيسي التوزري »^(٢)، وقد ختم بهذه القصيدة كتابه « الإعلام بمعجزات النبي عليه السلام »، ومطلعها : الحمد لله منا باعث الرسل، وتقع في ١٣٥ بيتاً^(٣).

وحينما قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية، ومحا رسومها، لم يستبق من الأعياد التي استحدثتها إلا عيد المولد النبوي، الذي ظل المسلمون في شرق العالم الإسلامي يحتفلون به، وإن كان اتخذ طابعاً من الجلال والفاخمة على نحو جديد لدى قائد من قواد صلاح الدين وكبار رجاله، هو الملك المظفر أبو سعيد كوكبوري بن علي كجك صاحب مدينة إربل بقرب الموصل^(٤).

وفي ظل الاحتفال بالمولد النبوي نمت وانطلقت حركة شعرية واسعة النطاق، موضوعها المدائح النبوية مما كان يُنشد بمناسبة هذه الاحتفالات، التي أصبحت منذ ذلك الوقت تقليداً ثابتاً في جميع بلاد المشرق في العراق والشام ومصر، حتى إننا نرى دواوين كاملة تفرد لهذا الموضوع، وشعراء كادوا يتخصصون فيه^(٥).

ومن هؤلاء الشعراء في العراق جمال الدين يحيى بن يوسف الأنصاري، المعروف بالصرصري، نسبة إلى صرصر، قرية قرب بغداد، ولد سنة ٥٨٨هـ، واستشهد عندما اقتحم مغول هولاكو بغداد وأطاحوا بالخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ^(٦).

كذلك يلقانا أواخر القرن السادس، وأوائل السابع في الشام كوكبة من كبار الشعراء، الذين نظموا في هذا الفن كثيراً من قصائدهم، منهم علي بن محمد الدمشقي المعروف بابن الساعاتي (عاش بين ٥٥٣ و ٦٠٤هـ)^(٧).

ويُعد ابن الساعاتي - شاعر صلاح الدين - نموذجاً لاشتداد تيار المديح النبوي في مواجهة الحروب الصليبية، وحروب التتار، يقول في أبيات من قصيدة يعارض فيها لامية كعب بن زهير:

هو البشِيرُ النَّذِيرُ العَدْلُ شَاهِدُهُ وللشَّهَادَةِ تَجْرِيحٌ وَتَعْدِيلُ
لَوْلَاهُ لَمْ تَكُ لَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ وَلَا الْفِرَاتُ وَجَارَاهُ وَلَا النَّيْلُ^(٨)

ومن شعراء الشام أيضاً في هذه الفترة فتيان الشاغوري (المتوفى سنة

(٦١٥هـ)^(٩).

« ويكاد المديح النبوي منذ بداية القرن السابع يكون موضوعاً لا يتخلف عنه شاعر في مصر، فمنهم المقل ومنهم المكثّر، ومنهم من كانوا يفردون له دواوين كاملة، وأعان على ذلك ازدهار الفكر الصوفي»^(١٠).

ويبرز في مصر في التلث الأول من القرن السابع صوفيها الكبير عُمر بن الفارض (المتوفى سنة ٦٣٢هـ)، وكان أكثر تغنيه بالحب الإلهي^(١١).

وحيث اقتضانا المنهج أن نتتبع نشأة فن المديح النبوي تاريخياً تتبعاً سريعاً، فمن الواجب أن نشير إلى أنّ غاية هذا البحث هو تَتَبُّعُ بعض أوجه التأثير والتأثر بين اثنين من الشعراء الكبار أبداعاً في قصيدة المديح النبوي: أولهم البوصيري رائد فن المديح النبوي، ثم شوقي شاعر العصر الحديث وله قلائد ثلاث شهيرة في شعرنا العربي الحديث.

سوف نقف عند قصيدة المديح النبوي عند البوصيري لننتبين كيف تأثر الشعراء قبله، وكيف أثر فيمن بعده، وفيم تناصّ مع سابقيه، وفيم كان استمداده من الذكر الحكيم، أو من بعض الحديث الشريف.

ولأمير الشعراء قصائد ثلاثة دارت حول مديح الرسول ﷺ وقفنا معها أيضاً - مع تميز صنعة شوقي - عند أوجه التأثير بالبوصيري، والبارودي كليهما وفيم كان الفوق.

البوصيري :

أراه رائد فن المديح النبوي، له السبق والفوق، فيما اعترف له شوقي في قصيدته (نهج البردة)، حين قال:

المَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعٌ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَا أُعَارِضُهُ مِنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرِمِ^(١٢)

إنه أبو عبدالله شرف الدين بن سعيد البوصيري (٦٠٨-٦٩٨هـ)^(١٣). له قصائد عديدة في المديح النبوي، منها ما نظمه قبل توجهه للحج، وأهمها

مُعارضته لكعب ابن زهير، ولأميته في الرد على اهل الكتاب، وقد ختمها بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتعبير عن شوقه لزيارته. وله قصائد في أثناء رحلته للحج، وأمام الضريح النبوي، وعلى أثر أداء الفريضة. وبعد عودته إلى مصر نظم أشهر مدائحه، وهما قصيدتان: همزيتة التي سماها (أم القرى في مدح خير الورى)، وبردته التي دعاها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)^(١٤).

همزية البوصيري :

نظم الشاعر هذه القصيدة الطويلة في وزن الخفيف، وتربو على أربعمئة وخمسين بيتاً، استهلها مباشرة، ومنذ البيت الأول بما يوضح هدفه الموضوعي من نظمها، فضلاً عما دفعه من عاطفة الحب والإعجاب بشخصية الرسول وسيرته. هذا الهدف هو (إعلاء محمد صلى الله عليه وسلم، صاحب الحمى، الذي يُدافع عنه المسلمون دفاعاً مستميتاً، على جميع الأنبياء: عيسى صاحب الصليبيين، وغير عيسى من المرسلين ...) ^(١٥).

لقد أعرض البوصيري في قصيدته الهمزية عن التقليد المتبع بالبداء بالغزل الوقور، على نحو ما يلقانا في قصيدته الأخرى (البردة)، فبدأ مشرقاً مع التجرد للهدف والاستهلال المباشر به روح الصدق في العاطفة، والتحرر من أسر التقليد، إلى رحابة التحليق في السماوات العُلا:

كَيْفَ تَرَقَى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءَ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يُسَاوُوكَ فِي غَلَاكَ وَقَدْحَا لَ سَنَا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَا
إِنَّمَا مَنَّا مَنَّا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ
أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصُدُّ إِلَّا عَنِ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ
لَكَ ذَاتُ الْعُلُومِ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَمِنْهَا لَادَمَ الْأَسْمَاءُ ^(١٦)

وهي ذي الأبيات تتحدث بنفسها عن مكانة نبي الإنسانية، في بناء فني مؤثر، وأسلوب رصين، وتصوير يليق بجلال الموقف. إن الاستقهامات (التعجبية) التي تغشى هذه القصيدة منذ بدايتها تعكس في وضوح قوة انبهاره بحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وآية ذلك المطلع الرائع الذي يبدو بغير نظير لدى شعراء

المديح، حيث يقول البوصيري الرائد:

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءَ يَا سَمَاءَ مَا طَوَّلَتْهَا سَمَاءُ

ونقف عند هذا المطلع القوي لنتبين أن الشطر الأول - كما ذكرنا - استفهام تعجبي، إذ يبدأ (بكيف)؟! وهو ينكر بهذا الاستفهام بدايةً على غير محمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء أن يتسنم مكانته الرفيعة السامقة.

كما نتبين أن الشطر الثاني نداء بصوت مرتفع يعين عليه صوتياً تتابع حرف الألف، وكثرته، إذ بلغ هذا الصوت في هذا الشطر - وحده - ستة. وإذ يستخدم النكرة غير المقصودة (يا سماء)، وأنى يبلغ أي من الأنبياء مكانة النبي الخاتم ...؟!!

وتوالي النفي في البيت التالي :

لَمْ يُسَاوُوكَ فِي عُلاكَ وَقَدْحًا لَ سَنَا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَا

ومع النفي: (لم يساووك في عُلاك ..) نراه يستخدم جملة الحال، لِيُجَلَّى عن النور والرفعة، وهذا سمت الشاهق الذي لا مجال لبشر أن يرقى إليه في رفعة وسناه، فقال: حال الضوء المبهر كما حال بُعد المكان ورفعة المكانة بين البشر

- حتى الأنبياء منهم - وبين أن يُسامقوا " سَيِّدَ الْكَوْنَيْنِ " .

ثم طفقَ يستخدم أسلوب القصر مع أداة الحصر (إنما) في تشبيه تمثيلي دقيق:

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ الْمَاءَ

فكأنما أراد أن يعكس لنا من حيث يدري أو لا يدري لمحة من نظرية (المثل والصور) الأفلاطونية.

صفات الرسول صلى الله عليه وسلم كائنة في (عالم المثل) الرفيع، وصفات غيره من الناس - ومنهم أنبياء الله - وإن حاولوا التشبه بالنبي في صفاته العليا، لا تزيد على كونها من (عالم الصور)، لا تعكس الحقيقة في دقة، وإنما تختلف

اختلفاً بيناً عن الأصل في مثاليته، فتبدو للناس محاكاة مهترزة مختلفة: (كما مثل النجوم الماء).

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو نبع النور وأصله :

أَنْتَ مِصْبَاحٌ كُلُّ فَضْلٍ فَمَّا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ

وقد سبق العلم بمحمد سيد المرسلين، في اللوح المحفوظ، فمكانته - فيما يرى الشاعر - قد سبقت آدم، كما بشرت به الأنبياء فيما نزل عليهم من الكتب السماوية، وكما ورد في القرآن، فهو - فيما يرى البوصيري - من قبل آدم، ومن بعده، فاضت منه العلوم، ونبع منع الخير والنور.

لَكَ ذَاتُ الْعُلُومِ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَمِنْهَا لَادَمَ الْأَسْمَاءُ
مَا مَضَتْ فِتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا بَشَّرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الْأَنْبِيَاءُ^(١٧)

أما تاج العلاء على مفرق العصور سموًا ورفعةً، فيعبر عنه قوله :

تَبَّاهَى بِكَ الْغُصُورُ وَتَسْمُو بِكَ عَلِيَاءُ بَعْدَهَا عَلِيَاءُ^(١٨)

وواضح أن اختيار المفردات، والعناية بتركيبها في الجملة، قد أديا دورهما الكبير في هذا البيت.

والى البوصيري يرجع الفضل في التناول الشعري المؤثر لذكرى مطلع النور، بميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فنراه يقول:

وَمَحِيًّا كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيَّةٌ أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَاءُ
لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الَّذِي كَانَ لِلدَّيْ نِ سُرُورٍ بِيَوْمِهِ وَأَزْدِهَاءُ
وَتَوَالَتْ بَشْرَى الْهُوَاتِفِ أَنْ قَدْ وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهِنَاءُ^(١٩)

ونرى شوقي يتأثر هذه المعاني في همزيتة النبوية الأخرى، وهي في وزن الكامل، ويقول متناولاً بإجلال حادثة ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم:

بِكَ بَشَّرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فُرِيَّتْ وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
وَبَدَا مُحْيَاكَ الَّذِي قَسَمَاتُهُ حَقٌّ ، وَعَرَّتْهُ هُدًى وَحَيَاءُ
يَوْمَ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ وَمَسَاوُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَاءُ^(٢٠)

وحيث يقول البوصيري:

يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ابْنَةً وَهَبٍ مِنْ فَخَارٍ مَالَمَ تَنَلُهُ النَّسَاءُ^(٢١)

فإننا نلمح شوقي يتناص مع هذا البيت، ولكن في موضع آخر، ويتأثره حيث يقول في (شكسبير):

نالته به وحده إنجلترا شرفاً ما لم تنال بالنجوم الكثر جوزاء^(٢٢)

ومن هذا التأثير أيضاً بيت شوقي في الهزمية النبوية:

يَأْيُهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرْفًا إِلَى مَا لَا تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجَوْزَاءُ^(٢٣)

هزمية البوصيري وتأثره بمعلقة الحارث اليشكري :

وحيث تُعني (بالتناص) أو بالحرى: بالاستعارات الفنية بين السابق

واللاحق، وبين الشاعر والشاعر القديم، فإننا نقف ابتداءً لنؤكد أن البوصيري استعار الإطار الموسيقي من الوزن والقافية الهزمية من الشاعر الرزين صاحب المعلقة الحارث بن حلزة اليشكري البكري، وقد تمثلها البوصيري، بل وربما وضعها نصب عينيه، فراح ينظم معزوفته النبوية الطويلة، في إطارها، وإن تجاوزها - لطبيعة اختلاف العصر والموضوع والثقافة - وفاقها كما وكيفا^(٢٤).

أما معلقة الحارث البكري، فهي التي يقول في أولها:

أَدْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

بعد عهدٍ لها ببرقة شَمَا ءَ ، فَأَدْنَى ديارها الخِصَاءُ^(٢٥)

وهي أيضاً في وزن الخفيف، وتفعيلاته: فاعلاتنْ مُستفعلنْ فاعلاتنْ.

وهي قصيدة رصينة هادئة النغم، أنشدها الشاعر فيما كان بين بكر وتغلب من خصومة، يرد بها على معلقة الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم وما غشيها من تهديد، وتوعد في خطابية صارخة، حيث يخالف الحارث بن حلزة هذا السنن الجاهلي من الصخب والنزق إلى محاولة التأثير العقلي على المتلقي، مستعياً بضرب من الحوار الذي لا عهد لكثير من الجاهليين به، إلا من كان من أولي الفضل، وأهل الحكمة، وقليل ما هم.

ولم نبالغ إذ قلنا إن البوصيري قد تمثل هذه القصيدة المعقدة، وتتاص معها، وقد أعجبه فيها طابع الاتزان، والحجاج المنطقي في الرد على دعاوى الخصوم، من خلال مجموعة من الاستقهامات (الإنكارية)، وخلال هذا الحوار:

أَعْلَيْنَا جُنَاحَ كِنْدَةَ أَنْ يُغْنَمَ غَازِيَهُمْ ، وَمَنَا الْجَزَاءُ ؟
 أَمْ عَلَيْنَا جَرَى حَنِيْفَةَ أَوْ مَا جَمَعْتُ مِنْ مُحَارِبِ غُبْرَاءُ ؟
 أَمْ جِنَايَا بَنِي عَتِيْقٍ ، فَمَنْ يَغْدُرُ فَاِتَا مِنْ حَرِيْبِهِمْ بُرَاءُ ؟
 أَمْ عَلَيْنَا جَرَى الْعِبَادِ كَمَا نِيْطُ بِجُوْزِ الْمُحْمَلِ الْأَعْبَاءُ ؟
 أَمْ عَلَيْنَا جَرَى قُضَاعَةَ أَمْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِيمَا جَنَوْنَا أُنْدَاءُ ؟
 أَمْ عَلَيْنَا جَرَى إِيَادٍ كَمَا قِيلَ ، لِطُسَمٍ أَخُوْكُمْ الْآبَاءُ ؟^(٢٦)

إن تأثر البوصيري بهذه الأبيات، ونهجها في السخرية الهادئة من خلال أسلوب الاستقهام، ثم تكرار (أَمْ) في صدر مجموعة متتالية من الأبيات، يبدو شديد الوضوح في حواجه أصحاب الملل الأخرى يلحى عليهم، وعلى جحافل الصليبيين هجومهم الآثم على نبي الإسلام، مناقشاً عقيدتهم، مبطلاً حججهم، في مجموعة من الجمل الاستقهامية، تسبق معظمها أداة الاستقهام (أَمْ) :

أَ إِلَهَ مُرَكَّبٍ مَا سَمِعْنَا بِإِلَهِ لِدَاتِهِ أَجْرَاءُ!
 أَلْكَلُّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ كِ فَهَلَّا تَمَيَّزُ الْأَنْصِبَاءُ ؟
 أَمْ هُمْ خَلَلُوا بِهَا شَرِكَةَ الْأَبْدَانِ ، أَمْ هُمْ لِبَعْضِهِمْ كُفْلَاءُ ؟
 أَمْ سِوَاهُمْ هُوَ الْإِلَهِ فَمَا نِسْبَةُ عَيْسَى إِلَيْهِ وَالْإِنْتِمَاءُ ؟
 أَمْ أَرَدْتُمْ بِهَا الصِّفَاتِ فَلِمَ خُصَّتْ ثَلَاثٌ بِوَصْفِهِ وَتَثَاءُ ؟
 أَمْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ مَا شَارَكْتُهُ فِي مَعَانِي الْبُئُوءَةِ الْأَنْبِيَاءِ ؟^(٢٧)

وواضح أيضاً تأثره في الأبيات بالمحاجة القرآنية في قوله : (أَلْكَلُّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ... ؟) حيث يقول تعالى مُحَاجًّا أَهْلَ الْكِتَابِ : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣].

ونرى شدة إعجاب البوصيري بهمزية الحارث، اقتباساً واضحاً من مطلع

المعلقة، حين يقول في وصف حالة حليلة مرضعة النبي أثناء حادثة شق الملائكة قلبه، بحيث يبدو هذا البيت قرينة واضحة لما أكدناه من التأثير:

فَارْقَنَهُ كَرْهًا وَكَانَ لَدَيْهَا ثَاوِيًا لَا يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ^(٢٨)
في مواجهة الغزو الصليبي :

والقصيدة الهمزية البوصيرية تعبر عن محنة الشاعر ومعاصريه بالغزو الصليبي القادم من الغرب، فضلاً عن جحافل التتار القادمة من الشرق، وكان قدر الطرق الصوفية أن تتصدى بجماهيرها المؤمنة - وراء القادة، في القرنين: السادس والسابع الهجريين - لترد بالجهاد المثابر عنت الغزاة، وموجاتهم العاتية. ولهذا اعتصم أبناء مصر والشام بالدين، واستغاثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤيدهم الله تعالى بنصره.

لهذا فإن مدائح البوصيري النبوية هو وغيره من الشعراء في هذه الحقبة تُعد صدقاً وجدانياً وعقيدياً لهذه الأحداث التاريخية الكبرى، وكما ذكرنا رداً فنياً وجمالياً وعقلياً على مزاعم هؤلاء الصليبيين في اجترائهم على المسلمين، وأرضهم، ونبیهم. فجاءت هذه القصائد لتعبر عن حالة وجدانية إيمانية، ولتعكس توترًا عاطفياً في عزف شعري طويل، تستمد من الموروث الجاهلي والإسلامي تارة، ومن القرآن الكريم بناءً وتعبيراته، وحجابه أهل الكتاب، ودفاعه عن الرسول تارة أخرى، فضلاً عن بسط كبرى أحداث حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي بنية شعرية مسرفة الطول:

ولأن الشاعر يحب ممدوحه الجليل القدر، فهو يأسى لما يصيبه من أذى تتمثل في جُحود قومه في مكة في بداية الدعوة :

وَيَحْ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضِ أَلْفَتَهُ ضِبابُهَا وَالظَّبَاءُ
وَسَلَوُهُ وَحَنَّ جِدْعٌ إِلَيْهِ وَقَلْبُهُ وَوَدَّهُ الْغُرْبَاءُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَأَوَاهُ غَارٌ وَحَمَّتْهُ حَمَامَةٌ وَرَقَاءُ^(٢٩)

ولا يني يعبر عن أساه بإزاء نبیه المحبوب، وما تعرض له من افتراء وأقاويل باطلة حين جحدوا الهدى والبيئات:

فَأَطَالُوا فِيهِ التَّزِدُّدَ وَالرَّيْبَ فَقَالُوا سِحْرٌ وَقَالُوا افْتِرَاءٌ
وَأَذَا الْبَيِّنَاتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا فَالْتِمَاسُ الْهُدَى بِهِنَّ عَنَاءٌ
وَأَذَا ضَلَّتِ الْعُقُولُ عَلَى عِلْمٍ فَمَاذَا تَقُولُهُ النَّصَحَاءُ^(٣٠)
ويعرف البوصيري للكلمة دورها في الجهاد، فيتوجه إلى أصحاب الحملات
الصليبية بأعنف اللوم حين أساءوا لنبي الإنسانية، وحين أهدروا قيم المسيحية
السمحاء:

لَوْ جَحَدْنَا جُحُودَكُمْ لَأَسْتَوِينَا أَوْ لِلْحَقِّ بِالضَّلَالِ اسْتِوَاءٌ
مَا لَكُمْ إِخْوَةَ الْكِتَابِ أَنَسَاءً لَيْسَ يُرْعَى لِلْحَقِّ مِنْكُمْ إِخَاءٌ^(٣١)
ويسترسل الشاعر في إنكاره مسلكهم الآثم في معادل فني يثبت فيه أن
الرسول حقٌّ كما ورد في الكتب، ويشير إلى قوة المجاهدين في التصدي ومحق
الباطل:

بَيَّنَّتْهُ تَوَرَّاتُهُمْ وَالْأَنَاجِيْلُ وَهُمْ فِي جُحُودِهِ شُرَكَاءُ
عَرَفُوهُ وَأَنكَرُوهُ وَظَلَمُوا كَتَمْتَهُ الشَّهَادَةَ الشُّهْدَاءُ
أَوْ نُورَ الْإِلَهِ تَطْفِئُهُ الْأَفْوَاهُ وَهُوَ الَّذِي بِهِ يُسْتَضَاءُ
أَوْ لَا يُنْكَرُونَ مَنْ طَحَنَتْهُمْ بِرَحَاهَا عَنْ أَمْرِ الْهَيْجَاءِ^(٣٢)
والكثير من أبيات البوصيري خاصة تلك التي تصور رحلة الحج، وزيارة
قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجده، تغشاها الروحانية، وصدق
التجربة، صدقاً يعرفه من أتاحت له المقادير هذه الرحلة الروحية، فهو يصور
لحظة الوصول:

أَيُّ نُورٍ وَأَيُّ نَوْرِ شَهَدْنَا يَوْمَ أَبَدَتْ لَنَا الْقُبَابَ قُبَاءٌ!
قَرَّ مِنْهَا دَمْعِي وَقَرَّ اصْطِبَارِي قَدُمُوعِي سَيْلٌ وَصَبْرِي جُفَاءً^(٣٣)
وفي تلقائية عذبة يُصور موقف السلام على رسول الله صلى الله عليه
وسلم:

وَقَرَأْنَا السَّلَامَ أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يُسْمَعُ الْإِقْرَاءُ

وَدَهَلْنَا عِنْدَ اللَّقَاءِ وَكَمْ أَذْهَلَ صَبَابًا مِنَ الْحَبِيبِ لِقَاءُ^(٣٤)
وتظل العبارة القرآنية تشرق في جمل البوصيري الشعرية، من ذاك قوله
عن الصحابة رضوان الله عليهم:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ فَأَنَّى يَخْطُوا إِلَيْهِمْ خَطَاءً؟^(٣٥)
فهو تأثر بقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾
[البينة: ٨]، كذلك قوله:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَأَنْتَ صَخْرَةٌ مِنْ إِبَائِهِمْ صَمَاءً^(٣٦)
تأثر واضح بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَوَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذه مجرد إشارات تأتي بها على سبيل المثال، إذ تغشى العبارات القرآنية
الكثير من أبيات البوصيري.

أما الصدق الوجداني، فيشرق في مناجياته الرسول، يرتل عليه أغنيات
الحب النبوي العذاب:

يَا نُبِيَّ الْهُدَى إِغَاثَةَ مَلْهُوفٍ أَضَرَّتْ بِحَالِهِ الْحَوْبَاءُ
يَدْعِي الْحُبَّ وَهُوَ يَأْمُرُ بِالسُّوْءِ
عِ وَمَنْ لِي أَنْ تَصُدَّقَ الرَّغْبَاءُ
كَيْفَ يَصْدَا بِالذَّنْبِ قَلْبُ مُحِبِّ
وَلَهُ ذِكْرُكَ الْجَمِيلُ جِلَاءُ؟
هَذِهِ عَلَّتِي وَأَنْتَ طَبِيبِي
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ فِي الْقَلْبِ دَاءُ^(٣٧)

وتتوالى نغمات الصدق في الحب النبوي الروحي:

أَبِذْكَرِ الْآيَاتِ أَوْفِيكَ مَدْحًا أَيَّنَ مِنِّي وَأَيَّنَ مِنْهَا الْوَفَاءُ؟
وَأَنَّكَ الْأُمَّةُ الَّتِي غَبَطْتَهَا
بِكَ لَمَّا أَتَيْتَهَا الْأَنْبِيَاءُ
لَمْ تَخَفْ بَعْدَكَ الضَّلَالَ وَفِينَا
وَارِثُونَ نُورِ هَدْيِكَ الْعُلَمَاءُ
فَأَنْقَضَتْ آيُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَيَا
تُكْ فِي النَّاسِ مَا لَهُنَّ أَنْقِضَاءُ
إِنَّ مِنْ مُعْجَزَاتِكَ الْعَجْزَ عَنْ وَدْ
فَكَ إِذْ لَا يَحْدُهُ الْإِحْصَاءُ^(٣٨)

ولا أدري أهي فكرة " اللامتاهي " الرياضية التي ألهمت البوصيري البيت الأخير من هذه الأبيات.

وإنّ نظرةً لامحة على الطابع الأسلوبي الغالب على الهمزية لتؤكد لنا أن الشاعر لا يفتأ يستخدم الاستفهام بأدواته المتنوعة في المواقف المختلفة وصولاً إلى إبراز فكرته بما يعكس عاطفة الحب الشديد، والانبهار بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعطائه الخالد للإنسانية.

من ذلك :

مَنْ لِحَوَاءِ أَنَّهَا حَمَلَتْ أَحْمَدَ أَوْ أَنَّهَا بِهِ نَفْسَاءُ ؟
ومن الاستفهام التعجبي :

كَمْ رَأَيْنَا مَا لَيْسَ يَعْقِلُ قَدْ أَلْهَمَ مَا لَيْسَ يُلْهَمُ الْعَفْلَاءُ !
ومن ذلك أيضاً :

كَمْ يَدٍ عَنِ نَبِيِّهِ كَفَّهَا اللهُ وَفِي الْخَلْقِ كَثْرَةٌ وَاجْتِرَاءُ !
ومما يعكس الإعجاب القوي، قوله مبيناً منزلة الرسول ومعجزته :

أَمَعَ الصُّبْحِ لِلنُّجُومِ تَجَلُّلٌ أَمْ مَعَ الشَّمْسِ لِلظُّلَامِ بَقَاءُ ؟
وهو المعنى الذي دارت حوله أبيات الهمزية منذ بدايتها.

وقد لاحظنا أن تأثير همزية البوصيري قد تجاوز شعراء المديح النبوي، إلى غيرهم من الرومانسيين العرب، فقد تأثر البوصيري وتناص معه بعض هؤلاء الشعراء المحدثين، فحيث يقول البوصيري :

أَبْذُكِرِ الْآيَاتِ أَوْفِيكَ مَدْحًا أَيْنَ مِنِّي وَأَيْنَ مِنْهَا الْوَفَاءُ ؟
وحيث يقول:

لَمْ يُسَاوُوكَ فِي عِلَّاكَ وَقَدْحًا لَ سَنَى مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
فإننا نرى الشاعر إبراهيم ناجي يقول من قصيدته " الأطلال " :

أَيْنَ مِنِّي مَجْلِسٌ أَنْتَ بِهِ فِتْنَةٌ تَمُتُ سِنَاءً وَسَنَا ؟ (٣٩)

فأعاد استفهام البوصيري وعبارته التي لا أحسبه سبق إليها (أين مني؟)، وكذلك مفردتيه (سنًا) و (سناء) بمعنى النور، والرفعة، على نحوٍ جديدٍ، وفي سياقٍ غراميٍ يخلق فيه ناجي في جلال ووقار.

وللبوصيري بائية جميلة تتسم بسهولة الألفاظ مع عذوبة الموسيقى، أنشدها في وزن الوافر، ومطلعها:

بِمَدْحِ الْمُصْطَفَى تَحْيَا الْقُلُوبَ وَتُعْتَفِرُ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبُ^(٤٠)

وفيها يسير على سنن مدائحه الأخرى، « ويمضي فيصور تعلقه بالرسول وشغفه بزيارته، ويأخذ في وصف مناقبه وشمائله، ويرد على النصارى واليهود مبيّنًا ضلالاتهم، وينوه بالقرآن الكريم معجزة محمد الكبرى، ويحصي طائفة من معجزاته الحسية، ويشيد بعلماء الأمة وأنصار الرسالة النبوية، ويلجأ إلى الرسول ضارعًا مستغيثًا »^(٤١).

لامية البوصيري : (دُخِرَ المعاد ..) :

ومنذ العصر الأموي والشعراء يبدون إعجابهم عمليًا بلامية كعب بن زهير فيعارضونها، من ذلك معارضة الأخطل، وهي معارضة جزئية على مستوى شكل المقدمة. ومعارضة محمد بن أبي العباس الأبيوردي (ت ٥٠٧هـ)، ومعارضة الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ومن بعد البوصيري عارضها ابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠هـ) وابن نباتة المصري (٧٦٨هـ)^(٤٢).

وظمحت نفس البوصيري إلى تلك المعارضة والمحاكاة فنظم قصيدة طويلة في نحو مائتي بيت على زنها وقافيتها وسمّاها « دُخِرَ المعاد في وزن بانث سعاد »^(٤٣).

وحيث يستهلها البوصيري مجددًا بقوله مخاطبًا نفسه :

إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّذَاتِ مَشْفُوعٌ ؟ وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولٌ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أَنْ تَتُوبَ غَدًا وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّسْوِيفِ مَحْلُولٌ^(٤٤)

فإنه « عدل في مقدمة مدحته عن الغزل الذي استهل به كعب مدحته،

وكانه أراد أن يضمّنها مقامات طريقته الشاذلية، وهو يبدوها بمقام التوبة أو بعبارة أخرى بمقام الفرار من المعاصي، والالتجاء إلى الله، وهو أول مقامات الصوفية «(٤٥)».

وتلقانا لامية البوصيري على درجة من الجمال الفني، والصدق العاطفي الذي يضيف عليه أسلوب البوصيري قوة، ووضوحاً، من ذلك أبياته التي تثبت للرسول صلى الله عليه وسلم السبق والمكانة، ومعرفة الأنبياء به وبمكانته وقدره، فكانه أولهم، وهو خاتمهم :

مُحَمَّدٌ حُجَّةَ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسُنَّةٍ مَا لَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
مَنْ كَمَلَ اللَّهُ مَعْنَاهُ وَصَوْرَتُهُ فَلَمْ يَفْتَهُ عَلَى الْحَالِينَ تَكْمِيلُ
مِنْ آدَمَ وَإِحْيَانَ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ الْمَكْنُونُ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ
فَالنُّبُوَّةَ إِنْ تَمَّامٌ وَمُبْتَدَأٌ بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ^(٤٦)

ونقف عند أبيات من هذه القصيدة تشيد بالذكر الحكيم وآياته :

إِنْ رُمْتَ أَكْبَرَ آيَاتٍ وَأَكْمَلَهَا كِفَاكَ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ تَنْزِيلُ
وَانظُرْ فَلَيْسَ كَمِثْلِ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ وَلَا كَقَوْلِ آتَى مِنْ عِنْدِهِ قِيلُ
تَزْدَادُ مِنْهُ عَلَى تَرْدَادِهِ مَقَّةً وَكُلُّ قَوْلٍ عَلَى التَّرْدَادِ مُمْلُولُ^(٤٧)

وآخر الأبيات السابقة يشير إلى جانب في الإعجاز القرآني، وهو أنه (لا يخلق على كثرة الرد)^(٤٨)، بل يخبرنا أن آياته يزداد المرء حبالها، وإقبالاً عليها كلما أعاد تلاوتها وترتيلها. بما يذكرنا بحديث شريف شهير في هذا المعنى وغيره^(٤٩).

ونلمح « التناص » مع كعب، في البيت الذي يقول فيه :

وَمَا تَمَسَّكَ بِالْوَصْلِ زَعَمْتُ إِلَّا كَمَا تَمَسَّكَ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ^(٥٠)

حيث يقول البوصيري :

لَا تَمَسُّكَ الدَّمَعُ مِنْ حُزْنٍ عِيُونُهُمْ إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ^(٥١)

كأنما أبت على البوصيري صنعته المعارضة إلا أن يوشي قصيدته بصيغ

أثيرة بل بأشطر من لامية كعب.

كذلك نلمح « التناص » مع كعب في البيت الشهير :

فَقُلْتُ : خَلَوُ طَرِيقِي ، لَا أَبَا لَكُمْ فُكُلٌ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ (٥٢)

وذلك حيث يقول البوصيري :

لِيَفْضِيَّ اللهُ أَمْرًا كَانَ قَدْرَهُ وَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ (٥٣)

غير أن ثقافة البوصيري، وأثر عصره، وغزارة شاعريته فاضت في هذه القصيدة اللامية التي ربت على مئتي بيت، وفاقته في جملتها وتفصيلها لامية كعب بمحدودية أبياتها، خاصة أنها تعرضت - بطبيعة الحال لأحداث كبرى وبطولات من حياة الرسول، وغزواته، فضلاً عن مديح آل البيت الكرام، وصحابة الرسول رضوان الله عليهم.

إنَّ جوانب معجبة في شخصية الرسول يعرض لها في مديحه :

يَا خَيْرَ مَنْ رُوِيَ لِلنَّاسِ مَكْرُمَةٌ عَنْهُ وَفُصِّلَ تَحْرِيمٌ وَتُخْلِيلٌ
كَمْ قَدْ أَتَتْ عَنْكَ أَخْبَارٌ مَخْبَرَةٌ فِي حُسْنِهَا أَشْبَهَ التَّفْرِيعَ تَأْصِيلٌ
تُسْرَى إِلَى النَّفْسِ مِنْهَا كَلِمًا وَرَدَّتْ أَنْفَاسٌ وَرَدَّ سَرَّتْ وَالْوَرْدُ مَطْلُولٌ
مِنْ كُلِّ لَفْظٍ بَلِيغٍ رَاقٍ جَوْهَرُهُ كَأَنَّهُ السَّيْفُ مَاضٍ وَهُوَ مَصْنُوقٌ
لَمْ تَبْقَ نِكْرًا لِيذِي نَطَقٍ فَصَاحَتُهُ وَهَلْ تُضِيءُ مَعَ الشَّمْسِ الْقَنَادِيلُ (٥٤)

كذلك يلقانا البوصيري شديد الإعجاب والانبهار بآل النبي صلى الله

عليه وسلم في أبيات تعرب عن صادق الحب ومخلصه :

آلَ النَّبِيِّ بِمَنْ أَوْ مَا أَشَبَّهُكُمْ لَقَدْ تَعَدَّرَ تَشْبِيهٌ وَتَمَثِيلٌ
يَا قَوْمَ بَايَعْتُمْ أَنْ لَا شَبِيهَ لَكُمْ مِنَ الْوَرَى فَاسْتَقِيلُوا الْبَيْعَ أَوْ قَبِلُوا
وَإِنَّ مَنْ بَاعَ فِي الدُّنْيَا مَحَبَّتَهُمْ بِبِغْضِهِ اللهُ فِي الْأُخْرَى لَمَزْدُولٌ
إِنَّ الْمَوَدَّةَ فِي قُرْبَى النَّبِيِّ غِنَى لَا يَسْتَمِيلُ فَوَادِي عَنْهُ تَمْوِيلٌ (٥٥)

ونختم حديث اللامية بأبيات مديحه صحابة رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وحسن بلاتهم:

وَكَمْ لِأَصْحَابِهِ الْعُرِّ الْكِرَامِ يَدٌ عِنْدَ الْإِلَهِ لَهَا فِي الْفَضْلِ تَخْوِيلُ
قَوْمٌ لَهُمْ فِي الْوَعَى مِنْ خَوْفِ رَبِّهِمْ حُسْنُ ابْتِلَاءٍ وَفِي الطَّاعَاتِ تَبْتِيلُ
كَأَنَّهُمْ فِي مَحَارِبٍ مَلَائِكَةٌ وَفِي حُرُوبٍ أَعَادِيهِمْ رَائِبِلُ^(٥٦)

وهو في آخر هذه الأبيات يعتمد الطباق بين الصورتين وسيلةً فنيةً لبيان نبالتهم مع شجاعتهم.

بردة البوصيري الميمية :

ترجع أهمية البوصيري الشهيرة إلى جودتها الفنية، فيها - مع التلقائية - بكاراة الأصل، كما ترجع إلى ذبوعها الذائع بين قصائد المديح النبوي، وإلى أنها حفرت في نفوس الشعراء، وعلقت بأفئدتهم فاحتذوها، وتأثروها، أو تناصوا مع عديد من أبياتها حين صاغوا على غرارها قصائد أخرى معارضة في المديح النبوي، وحين نشأ في إثرها فن يعرف (بالبديعيات)، وحين أوسعها الشعراء تشطيراً، وتخميساً، وتسيباً.

وقد حظيت بردة البوصيري بمكانة كبرى في العالم الإسلامي، تمثلت في حفظها، بل وقراءتها في الصباح والمساء، حيث كانت تقام لها المجالس في المساجد والمنازل وساحات الاحتفال بالمولد النبوي. وتعددت طبعات البردة في القاهرة، وفي أمكنة عديدة من العالم، وفي دار الكتب المصرية نسخٌ من البردة حُلِّيت كتابتها بالذهب، كذلك حظيت بشروح متعددة^(٥٧).

ولقد عارض هذه القصيدة عديد من الشعراء من بينهم والد بهاء الدين العاملي مؤلف (الكشكول)^(٥٨).

وتربو بردة البوصيري على مئة وسبعين بيتاً.

ولاشك أن البوصيريّ تأثر بميمية ابن الفارض التي يقول في مطلعها :

هَلْ نَارٌ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلًا بَدِي سَلَمٌ أَمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الزُّورَاءِ فَالْعَلَمُ
أَرْوَاحُ نَعْمَانَ هَلَّا نَسَمَةٌ سَحْرًا وَمَاءٌ وَجَرَةٌ هَلَّا نَهْلَةٌ بَقَمُ^(٥٩)

ومطلع قصيدة البوصيري:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِنْدِي سَلَمٍ مَرَجَّتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتْ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ البَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ^(٦٠)

فقد تأثر البوصيري من ابن الفارض : مكان الحنين : ذا سلم، وهبوب
الريح، وكذلك وميض البرق. فضلاً عن وزن (البسيط)، وقافية الميم
المكسورة^(٦١).

" يضاف إلى هذا أن ابن الفارض قال :

يا لائماً لَأَمْنِي فِي حَبِّهِمْ سَفْهاً كُفَّ المِلاَمَ فلو أَحْبَبْتَ لَمْ تَلْمِ
فتابعه البوصيري فقال :

يا لائمي فِي الهَوَى العُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِنِّي إِلَيْكَ ولو أَنْصَفْتَ لَمْ تَلْمِ
كما تبع شوقي البوصيري حين قال :

يا لائمي فِي هَوَاهُ وَالهَوَى قَدَرٌ لو شَفَّكَ الوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَلْمِ^(٦٢)"
وفي المطلع الغزلي الوجداني للبردة أيضاً نقف عند البيت الذي يقول فيه
البوصيري:

مَحَضَّتِي النُّصْحَ لَكِنْ أَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ المُحِبَّ عَنِ العُدَالِ فِي صَمَمٍ
لنقرر تأثر البوصيري بقول ابن رزيق البغدادي في مطلع فريدته العينية:
لا تَعْدِلِيهِ فَإِنَّ العُدَالَ يولَعُهُ قد قَلَّتِ حَقَّتْ وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ^(٦٣)
ونقف عند بيت البوصيري :

فإنَّ فَضْلَ رَسولِ الله لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ ناطِقٌ بِفَمٍ
وكذا عند قوله :

وَكلُّ آيٍ أتَى الرُّسُلَ الكِرَامَ بِهَا فَإِنما اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِم
لنتبين « تناص » البارودي مع البيتين كليهما حين قال في ميميته
المعارضة:

مَنازِلُ لهُواها بَيْنَ جانِحَتِي وَدِيعَةٌ سَرُّها لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي

فقد صاغ البارودي من بيتي البوصيري عبارته الجديدة:

« لم يتصل بفي »، وأتى شوقي يتناصُّ مع الرائدین كليهما، متأثراً عبارة البارودي الجديدة، وموظفاً إيَّها في سياق جديد:

وَنُودِيْ إِقْرَأْ تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمِ
وإن كان شوقي ليُضيف - مع تميزه - ما يضيفي ويفيضُ جواً من النغم
القدسي الرائع في بيته الذي يتلو البيت السابق، وذلك حيث يقول:
هُنَاكَ أَدْنَى لِلرَّحْمَنِ فَاِمْتَلَأَتْ أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّعْمِ
ونقف من البردة عند قول البوصيري مكبراً آيات القرآن :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ
فستشعر الاستمداد القرآني من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا
لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف:
٩].

وكذلك عند البيت الذي يقول فيه:

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ
فنتذكر الحديث الذي سبقت الإشارة إليه ومنه أن القرآن « لا تتقضي
عجائبه » وأنه « لا يخلقُ على كثرة الردِّ ». وإن كُنَّا نراه شغل نفسه بالجناس
بين (تُسَامُ) و(السام) مما جعل في البيت بعض التكلف، خاصة عندما نوازنه
ببيت شوقي :

آيَاتُهُ كُلُّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَرِيئُهُنَّ جَلَالَ الْعِتْقِ وَالْقِدَمِ
إن اختيار المفردة في بيت شوقي لم يأت لمقتضى بديعي، وإنما لتوظيفها
فنياً في خدمة جلال المعنى. وعند شوقي نرى الكلمات والقوافي - وقد اختزنها
الشاعر في ذاكرته - يُعيد استخدامها على نحو جديد، وفي سياق أسرٍ تغشاها
التلقائية والروحانية.

تأثره بأبي ذؤيب :

ويستوقفنا من بردة البوصيري ذلك التشبيه التمثيلي المؤثر، يعبر عن فكرة (القناعة)، وألاً يُطلق المرء لنفسه عنان الرغبة، فحاجات النفس لو استجاب لها المرء لا تنتهي. وهو المعنى الذي أجاد التعبير عنه شاعر صدر الإسلام أبو ذيب الهذلي، فأثر عنه قوله :

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفَطِمِ

لنرى كيف تأثر سابقه ثم أعاد المعنى في معادل تصويري قوي.
تأثره بالنابعة :

كذلك نلمح تأثره بالنابعة الذبياني حيث يقول للنعمان في إحدى اعتذارياته:
فإنك شمس ، والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
وذلك قوله مكبراً رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء :

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم
ترنيمة الإسراء :

وفي مناجاة رائعة يتوجه البوصيري بمجموعة من الأبيات تفيض بعاطفة الحب والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مصوراً سمو مكانته بين جميع الأنبياء من خلال أحداث الإسراء والمعراج تمر بنفسه المؤمنة الشاعرة، يقول:

يا خير من يم العافون ساحتها سعياً وفوق الأئيق الرُسم
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر ومن هو النعمة العظمى لمعتنم
سريت من حرم لئلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تحترق السبع الطباق بهم في موكب كنت فيه صاحب العلم^(٦٤)

وفي عزم شعري مندفع يُشيد البوصيري ببطولات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وبجهاده الباسل في حنين، وبدر، وأحد، وغيرها من كبرى الغزوات، مُصَوِّراً شجاعته، مترنماً بمضائهم وقوتهم، وهو يستدعي من ذاكرة

التاريخ أيامهم العُرَّ مثلاً أعلى من التصدي للباطل، والجهاد لنصرة الحق، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، لقد لخص البوصيري مكنن القوة التي كانوا يعتصمون وينتصرون بها حين ألقى على مسامع معاصريه هذا البيت القوي:

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنَّ تَلْقَاهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا تَجِمُ
صلى الله عليه وسلم.

وتتابع كبار الشعراء ينظمون من بعد البوصيري، بديعياتهم الرائعة في إثر البردة، وعلى رأسهم فيما ذكرنا: ابن جابر الأندلسي، وصفي الدين الحلبي، وابن حجة الحموي وغيرهم.

وإذ « مضى الناس في عصر البوصيري وبعد عصره يتغنون بهذه القصيدة الرائعة وأختها الهمزية في حفلات الموالد والأعياد »^(٦٥)، فإن علينا أن نذكر « أَنَّ الْبُرْدَةَ وَأُخْتَهَا الْهَمْزِيَّةُ لَمْ تُكْتَبَا ابْتِدَاءً لِحَلَقَاتِ الذِّكْرِ، فِيمَا نَظَنَ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْبَوْصِيرِيَّ لَمْ يَكْتُبْ بَعْضَ مَدَائِحِ النَّبِيَّةِ لِتِلْكَ الْحَلَقَاتِ »^(٦٦).

" فهناك مدائح بمجرد أن نبدأ قراءتها نحسن في وضوح أنها نظمت لتتشد في حلقة ذكر لله من حلقات الصوفية الشاذلية، من ذلك قصيدة رائية، أو قل : أنشودة الصلاة على رسول الله، وهي تجري على هذا النمط:

يا رب صلِّ على المختار من مُضِرِّ والأنبياء وجميع الرُّسُل ما ذكروا^(٦٧)
" ومثلها القصيدة المحمدية، لابتداء كل أبياتها باسمه صلى الله عليه وسلم، وهي تتوالى على هذه الشاكلة :

محمَّدٌ أشرفُ الأعرابِ والعجمِ محمَّدٌ خيرٌ من يمشي على قدمِ
محمَّدٌ بأسطِ المعروفِ جامعُهُ محمَّدٌ صاحبُ الإحسانِ والكرمِ^(٦٨)

والبوصيري بهذا وبغيره يُعدُّ فيما نرى رائد فن المديح النبوي، وسيبدو لنا تأثيره القوي، كما سوف تتبدى أستاذيته لأمير الشعراء شوقي.

أحمد شوقي وقصائده في المديح النبوي :

ترجع مكانة شوقي في شعرنا العربي الحديث إلى أسلوبه الشعري المتميز، إذ مكَّن بصياغته الفنية البارعة، لقصيدة تقوم على صفاء اللغة وعذوبتها، مع الجمال الصوتي والموسيقى، فضلاً عن روعة الصور وتلقائيتها. ومهما تحدث خصومه عما رأوه من ملامح على شعره، فلقد بقى لنا من أحمد شوقي كل هذا التراث الذي بين أيدينا من شعره الغنائي والمسرحي، يشهد له بأستاذية أمير الشعراء، وبأنه يظل بكل ما خلفه لقرءاء العربية قمة باذخة في الأدب، وإن كنت لأراه صناجة شعرنا العربي الحديث.

وفي أحمد شوقي (١٨٦٩-١٩٣٢م)^(٦٩) رائد جيل النهضة من المدرسة التقليدية في شعرنا العربي الحديث أوثر أن أسجل رأي مصطفى صادق الرافعي في مستهل مقال له بعنوان (شوقي)، يقول:

« هذا هو الرجل الذي يخيل إليّ أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضع فيه روحها المتكلم، فأوجبت له ما لم توجب لغيره، وأعانتها بما لم يتفق لسواه، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة، لا على قدر رجل في نفسه، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي ! »^(٧٠).

كذلك نشير إلى رأي أستاذنا الدكتور شوقي ضيف من أن شوقي إذ « يجري على عمود الشعر العربي، فقد أوتى من علمه بصياغاته وتأليفه ما لم يؤتته شاعر منذ البحري » وإذ التزم شوقي بالإطار العروضي التقليدي فقد « جدد كثيراً في معاني الشعر، بل أدخل موضوعات جديدة، ولكنه استطاع أن يقابل بين العلمين، وأن يؤلف بينهما تأليف شاعر صناع، يعرف كيف يحكم أصواته، وكيف يضبط ذبذباتها وتموجاتها ضبطاً دقيقاً، فإذا الجديد لا يجور على الصياغة، بل يندمج فيها، حتى يصبح من الصعب تمييزه »^(٧١).

ولشوقي صناجة الشعر العربي الحديث قصائد ثلاث في المديح النبوي،

هي من أروع شعره « الغنائي » وأكثره سيرورة بين جمهور المتلقين: أولها:
 الهمزية النبوية، والثانية: البائية التي عَنونها « بذكرى المَوْلد »، وثالثتها: هي
 الميمية المُعارضة لبردة البوصيري، والتي أسماها « نهج البردة ».
 الهمزية النبوية :

تربو هذه القصيدة على مئة وخمسة عشر بيتاً، ومطلعها :

وَلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ وَقَمُّ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنَاءٌ^(٧٢)

وفي الهمزية النبوية تلقانا فكرة سبق علم الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم في تعبير فني جديد، فهو تحية المرسلين إلى الوجود، وحيث بشر به خالق السماوات العلاء، فقد اتخذت زخرفها وازينت، كما تأرجت الأرض بعقب المسك الزكي:

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ تَحِيَّةً مِنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَى بِكَ جَاؤُوا
 بِكَ بِشَّرَ اللَّهِ السَّمَاءَ فَرُيِّتَ وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَاً بِكَ الْغَبْرَاءُ^(٧٣)

وشأن سابقه من أصحاب قصائد المديح النبوي من الشعراء الكبار يحيي أحمد شوقي يوم ميلاد المصطفى:

يَوْمَ يَتِيهَ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ وَمَسَاوُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَاءُ^(٧٤)
 ويشير إلى القرآن والوحي :

وَالْآيُ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةً جَبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ^(٧٥)

كذلك يقف الشاعر الرقيق عند تكريم اليتيم في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

نِعْمَ الْيَتِيمُ بَدَتْ مَخَايِلُ فَضْلِهِ وَالْيَتِيمُ رِزْقٌ بَعْضُهُ وَدَكَاةُ^(٧٦)

ونرى شوقي في « نهج البردة » يقرن اليتيم - مع التكريم - بالنفرد والتميز:
 ذُكِرَتْ بِالْيَتِيمِ فِي الْقُرْآنِ تَكْرِمَةً وَقِيَمَةُ اللَّوْلُوِّ الْمَكْنُونِ فِي الْيَتِيمِ^(٧٧)
 المدلول الخُلقي :

وإذ رأى شوقي دائماً، وفي مواضع متعددة من شعره، أن بناء الدول

والشعوب يجب أن يقوم على الخلق، وأثر عنه « وإنما الأمم الأخلاق »، فقد بهرته أخلاق الرسول الكريم. وقد استوحى مقالة الرجل الذي وفد على محمد صلى الله عليه وسلم، واستمع إليه، فلما عاد إلى قومه قال: « إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينًا لكان في أخلاق الناس حسنًا »، وكأنما أراد أن يفسر جوانب هذه الشخصية الخفية، حين سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلقه الشريف، فقالت « كان خُلقه القرآن »، فراح شوقي يترنم جملةً بأخلاق محمد :

يا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ ما تَهْوَى الْعُلَا " مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبْرَاءُ
لَوْ لَمْ تُقَمِ دِينًا لَقَامَتْ وَحْدَهُ " دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ
رَأَيْتَكَ فِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلٌ يُغْرَى بِهِنَّ وَيَوْلَعُ الْكُرَمَاءُ (٧٨)

وأما تفصيل هذه الأخلاق الكريمة، في جوانبها المتعددة المتنوعة فقد انقسمت في فروعها الباسقة إلى أربعة عشر بيتًا يصور كل منها فرعًا من المثل العليا في السلوك النبيل، والعاطفة المرهفة في العديد من مواقف الحياة وأحداثها، نذكر منها:

فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَّغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى وَفَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنْوَاءُ
وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمُقَدَّرًا لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجَهْلَاءُ
وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرَّحْمَاءُ
وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضَبَةٌ فِي الْحَقِّ لَا ضِعْفٌ وَلَا بَعْضَاءُ
وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِرَّةٌ تَعْرُو النَّدِيَّ وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ
وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ فَجَمِيعُ عَهْدِكَ نِزْمَةٌ وَوَفَاءُ (٧٩)

ولاشك أن وراء هذه الأبيات موروثةً تراثيًا من القرآن والحديث النبوي والمأثور مما حث على المثل العليا والأخلاق الرفيعة مما صدر عنه شوقي في هذه المعزوفة النبوية، وما عبر عنه من فضائل وقيم، أضاف إليها دقات من شاعريته:

ويشد شوقي إلى قصيدة المديح النبوي وترًا جديدًا يتحدث فيه عن عقيدة

التوحيد التي يراها حقيقة لاعمت فكر الإنسان حين نادى بها المفكرون القدماء، وحين سار في نورها قدماء المصريين، إذ عرفوا الإله الواحد، كذلك يشير الشاعر إلى مبدأ المساواة، وما حققه الإسلام على يد نبيه من إرساء مبادئ الشورى، وغيرها:

بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمَحَةٌ	بِالْحَقِّ مِنْ مَلِئِ الْهُدَى غَرَاءُ
بُنِيَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَهِيَ حَقِيقَةٌ	نَادَى بِهَا سُقْرَاطُ وَالْقَدَمَاءُ
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا	كُھَانُ وَادِي النَيْلِ وَالْعُرْفَاءُ
فَرَسَمَتْ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكُومَةً	لَا سَوْقَةَ فِيهَا وَلَا أَمْرَاءُ
اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ	وَالنَّاسُ تَحْتَ لُؤَائِهَا أَكْفَاءُ
وَالدِّينُ يُسَرُّ وَالْخِلَافَةُ بِيَعَةً	وَالأَمْرُ شُورَى وَالْحَقُوقُ قَضَاءُ ^(٨٠)

أصداء العصر :

وحيث تعالت مع مطلع القرن العشرين دعاوى المفكرين الاجتماعية تنادي بالعدالة الاجتماعية، وتدبج الكتب والمقالات عن الاشتراكية وحقوق الإنسان، واشتدت نذر الحرب تهدد بالدمار، في صراع الدول الكبرى على النفوذ، فلقد أثبت شوقي في همزته فضل محمد وما دعا إليه من مبادئ سامية تفوق ما يعرض له المفكرون من النظريات موضعاً غاية مقصده في الجهاد، وتحقيق قيم الحق والتكافل والبر:

الإشْتِرَاقِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ	لَوْلَا دَعَاوِي الْقَوْمِ وَالْعُلُوءِ
الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدَيْكَ شَرِيعَةٌ	وَمِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ
وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ	لَا مَنَّةٌ مَمْنُونَةٌ وَجَبَاءُ
جَاءَتْ فَوَحَّدَتِ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ	حَتَّى التَّقَى الْكُرْمَاءُ وَالْبُخْلَاءُ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى	فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً	مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ ^(٨١)

حادثة الإسراء :

وتجذب حادثة الإسراء والمعراج شعراء المديح فتصبح بما تشعُّ من روحانيات جزءاً من قصيدة المديح النبوي، غير أن شوقي - وإن احتذى أو

تأثر سابقه - يطل علينا بما يلائم عصره ومكانته الشعرية :

يَأْيُهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرْفًا إِلَى " مَا لَا تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجَوَازُءُ
تَعَشَى الْغُيُوبَ مِنَ الْعَوَالِمِ كُلَّمَا طُوِيَتْ سَمَاءٌ قَلَّدَتْكَ سَمَاءُ
اللَّهُ هَيَّأَ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِهِ نَزْلًا لِدَاتِكَ لَمْ يَجُزْهُ عِلَاءٌ (٨٢)

ههنا نتذكر بيت البوصيري :

تَتَّبَاهَى بِكَ الْعُصُورُ وَتَسْمُو بِكَ عَلِيَاءٌ بَعْدَهَا عَلِيَاءٌ
فروسية « أحمد » :

ويختار الاسم الذي يشرك فيه الرسول الكريم، ليدير حوله الحديث عن مثالية النبي: الفارس النبيل، وخصاله النبوية الرفيعة، وفي حس إنساني تغشاه شعرية الأسلوب والتصوير :

الْخَيْلُ تَأْبَى غَيْرَ أَحْمَدَ حَامِيًا وَيَبْهَأُ إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ خُيَلَاءُ
شَيْخُ الْفَوَارِسِ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ إِنْ هَيَّجَتْ آسَادَهَا الْهَيْجَاءُ
سَاقِي الْجَرِيحِ وَمُطْعِمُ الْأَسْرَى وَمَنْ أَمِنْتَ سَنَابِكَ خَيْلِهِ الْأَشْلَاءُ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الرِّجَالِ غَلَاظَةٌ مَا لَمْ تَزِنْهَا رَأْفَةٌ وَسَخَاءٌ (٨٣)

ولا تزال تتوهج عاطفة الحُب النبوي لدى الشاعر، وتتنامى مع مشاعر الإعجاب والبهر بنبي الأمة مشاعر الخوف والإشفاق على قومه من أبنائها، فنراه يلوذ به ويعتصم وقت المحنة :

لِي فِي مَدِيحِكَ يَا رَسُولَ عَرَائِسٍ تُثَيِّمَنَّ فِيكَ وَشَاقِقَهُنَّ جَلَاءُ
هُنَّ الْجِسَانُ فَإِنْ قَبِلَتْ تَكْرَمًا فَمُهْوَرُهُنَّ شَفَاعَةٌ حَسَنَاءُ
أَنْتَ الَّذِي نَظَّمِ الْبَرِيَّةَ دِينَهُ مَاذَا يَقُولُ وَيَنْظُمُ الشُّعْرَاءُ ؟
مَا جِئْتُ بِبَابِكَ مَادِحًا بَلْ دَاعِيًا وَمِنْ الْمَدِيحِ تَضَرُّعٌ وَدُعَاءُ
أَدْعُوكَ عَنِ قَوْمِي الضُّعَافِ لِأَزْمَةٍ فِي مِثْلِهَا يُلْقَى عَلَيْكَ رَجَاءٌ (٨٤)

صلى الله عليه وسلم.

البائية النبوية : (ذكرى المولد) :

وتربو القصيدة على سبعين بيتًا، وهي معزوفة تفيض عاطفة وروحانية،

ينبعان بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أرسى من قيم خالدة في العالمين، كذلك تتفجر أبيات القصيدة بروح الإيمان الصادق، وعدم الركون إلى متاع الدنيا والغرور بها، وتغشى القصيدة أبيات خالدة في الحكمة تشرق فيها عبقرية التركيب في البيت الشعري أسلوبًا وابتكارًا في العبارة، وعذوبة في الموسيقى، وهي خصائص شوقي التي تغشى أبياته:

أَخَا الدُّنْيَا أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى تُبَدِّلُ كُلَّ آوَانَةٍ إِهَابَا
وَمِنْ عَجَبٍ تُشْتَبِّهُ عَاشِقِيهَا وَتُفَنِّيهِمْ وَمَا بَرِحَتْ كَعَابَا
فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فَإِنِّي لَبِستُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا
لَهَا ضَحِكُ القِيَانِ إِلَى غَيْبِي وَلِي ضَحِكُ اللَّيْبِ إِذَا تَغَابَا
جَنَيْتُ بِرَوْضِهَا وَرَدًّا وَشَوْكًا وَذُقْتُ بِكَأْسِهَا شَهْدًا وَصَابَا
قَلَمَ أَرَّ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمَا وَلَمْ أَرْ دُونَ بَابِ اللَّهِ بَابَا^(٨٥)

ومر بنا في شعر المتنبي أنه لا يثق في الدنيا، ولا يركن إليها، من مثل قول أبي الطيب:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روي رُمحه غير راحم^(٨٦)

ولكن تعبير شوقي عن رفض الغرور بالدنيا يأتينا أجمل عبارة وأصفي صوتًا وأعذب نغمًا، وأكثر جدة في الصورة المعادلة:

فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فَإِنِّي لَبِستُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا

وأما الاستطراد في الصورة، وأما « المقابلة » الجيدة، فمما تنفرد به عبقرية شوقي، مع خفة الروح :

لَهَا ضَحِكُ القِيَانِ إِلَى غَيْبِي وَلِي ضَحِكُ اللَّيْبِ إِذَا تَغَابَا

وإن « المعادل التصويري » الذي يقوم على « التضاد » لهو أبلغ في التعبير البديع:

جَنَيْتُ بِرَوْضِهَا وَرَدًّا وَشَوْكًا وَذُقْتُ بِكَأْسِهَا شَهْدًا وَصَابَا

وأما ختام هذه الأبيات تلقائيًا بالحكمة في أسلوب نادر العذوبة، صادق

اليقين، غير مسبوق في الجمال الصوتي، فهو هذا البيت الأثير في ذاكرة العربي المعاصر:

فَلَمْ أَرِ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمًا وَلَمْ أَرِ دُونَ بَابِ اللَّهِ بَابًا
ولا شك أن شعرية الطابع الحكمي تتبع عن إيمان صادق، وخبرة بالحياة، وثقافة متميزة، كل أولئك حدا بأمر الشعراء إلى أن يصوغ الحكمة موسيقا صوتية وروحية لها كبير التأثير على المتلقين، كما أن لها بقاء الفن الجميل في وجدان الشعب العربي على مر السنين :

وَأَنَّ الْبِرَّ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ ثَوَابًا
نَبِيُّ الْبِرِّ بَيِّنَةٌ سَبِيلًا وَسَنَنْ خِلَالَهُ وَهَدَى الشُّعَابَا
وَكَانَ بَيِّنَاتُهُ لِلْهَدْيِ سُبُلًا وَكَانَتْ خِيَلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا
وَعَلَّمْنَا بِنَاءِ الْمَجْدِ حَتَّى أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا
وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ تُوَخَّذُ الدُّنْيَا غِلَابَا
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا^(٨٧)

لقد مكن شوقي بشاعريته المتفردة لقيم أسلوبية لها طابع الجدة والعذوبة والتأثير، كما أحل لغة سهلة، مع إحساس دقيق بالمفردة، وأثرها في عبقرية التركيب، ومع استمداد من التراث في أروع صورته تمثلاً واحتذاءً، وإعادة صياغة، بحيث أصبح بجميع خصائصه الفنية: الأسلوبية والصوتية والموسيقية « صناجة القصيدة التقليدية الحديثة »، فحق له بكل ذلك، وبغيره من عمق الثقافة، وجمال التصوير إمارة الشعر العربي عبر كل عصوره، إن من أعذب المناجاة الروحية يترنم بها المؤمن حباً وقرباً وهو يلوذ بحمى المصطفى الكريم، وقد تضاعف لهم، واشتدت رياح العداوة والحنق، لهي أبيات أحمد شوقي :

أَبَا الزَّهْرَاءِ قَدْ جَاوَزْتُ قَدْرِي بِمَدْحِكَ بَيْدَ أَنْ لِي انْتِسَابَا
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانٍ إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
مَدَحْتُ الْمَالِكِينَ فَزِدْتُ قَدْرًا فَحِينَ مَدَحْتِكَ اقْتَدْتُ السَّحَابَا
سَأَلْتُ اللَّهَ فِي أُنْبَاءِ دِينِي فَإِنْ تَكُنِ الْوَسِيلَةَ لِي أَجَابَا

وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سِوَاكَ حِصْنٌ إِذَا مَا الضَّرُّ مَسَّهُمْ وَنَابَا^(٨٨)
 القصيدة الميمية « نهج البردة » :

بلغت هذه القصيدة مئة وتسعين بيتاً، وهي في وزن البسيط، وتتميز - مع قوة السبك ورسانة البناء - بأنها تمثل كسابقتها مقومات فنه الشعري وما يرتفع به شوقي على الشعراء من صفاء الجمل وعبقورية التأثر والاحتذاء، فحيث قال ابن الفارض:

يَا لَائِمًا لَأَمْنِي فِي حَبِّهِمْ سَفَهَا كُفَّ الْمَلَامَ فَلَوْ أَحْبَبْتَ لَمْ تَأْمِ^(٨٩)
 وحيث تابعه البوصيري في برده بقوله :

يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِنِّْي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَأْمِ^(٩٠)
 فإن بيت شوقي يتناص مع سابقه يأتينا على نحو فني خاص يعكس خصوصية أسلوب شوقي ومعجمه :

يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ - وَالْهَوَى قَدْرٌ - لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَأْمِ^(٩١)
 فنحن نقف عند عبارة شوقي : « والهوى قدرٌ »، لتتذكر أبياتاً أخرى غزلية يقول فيها:

لَكَ أَنْ تَلُومَ وَلِي مِنَ الْأَعْدَارِ أَنَّ الْهَوَى قَدْرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ
 مَا كُنْتُ أَسْلَمُ لِلْعَيُونَ سَلَامَتِي وَأَبِيحُ حَادِثَةَ الْغَرَامِ وَقَارِي^(٩٢)

فشوقي يقول لنا في غزليته: « أن الهوى قدرٌ من الأقدار » ولهذا نشعر في بيت « نهج البردة » الغزلي أيضاً بخصوصية معجم شوقي ورؤيته، حين قال: « والهوى قدرٌ »، ولأن « من ذاق » ليس « كمن عرف »، فهو يأتينا بمعنى عميق يعكس الحكمة مع صدق التجربة في الشطر الثاني بحيث يفوق سابقه :

« لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَأْمِ ».

بل نرى هذا البيت يعكس بالمقياس الفني والشعوري روح شوقي وشخصيته، وخصوصية معجمه وأسلوبه في صدق وتميز وجمال.

اتهام النفس :

ويتأثر شوقي من البوصيري تواضعًا، كما يتأثر اتهام النفس، فذنبه أيضًا قد تضاعفت وفاضت بها صحيفته، وهو الضعف البشري يستجيب لدواعي الهيام واللذات، وإن كان صلاحها في التمسك بالأخلاق، ومتابعتها بالنقويم :

يا وَيَلْتَأهُ لِنَفْسِي رَاعِهَا وَدَهَا مُسَوِّدَةُ الصُّحُفِ فِي مُبِيضَةِ اللَّحْمِ
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيحِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا أَخَذَتْ مِنْ حِمِيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتَّخَمِ
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِي الصِّبَا تَهَمُ
صَلَاحُ أَمْرِكِ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَفَقَّوْمِ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ (٩٣)

وهو ذا شوقي الذي تعددت عنده مواقف الحديث عن « الأخلاق » يراها دائماً مقوم بناء الأمم والشعوب والأفراد، وذلك - كما أشرنا - في أكثر من موضع من شعره، فهو تارة يقول لنا :

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنَّ تَوَلَّتْ مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قَدَمَا (٩٤)

وتارة أخرى يراها مقوم بناء الأقبام والشعوب :

وَلَيْسَ بَعَامِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَقَهُمْ كَانَتْ خَرَابًا (٩٥)

وهو في « نهج البردة » مخاطبًا نفسه يرى الأخلاق مرجع نجاح المرء وصلاحه:

صَلَاحُ أَمْرِكِ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَفَقَّوْمِ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ

وأحسب أن بيت شوقي عن النفس :

وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ

إنما يُجْمَلُ معنى بيتي البوصيري :

وَالنَّفْسُ إِنْ تَهْمَلُهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمُهُ يَنْفَطِمُ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا ، وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِيَهُ إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِ أَوْ يَصِمِ (٩٦)

أمير الأنبياء :

وحيث ينعت البوصيري محمداً صلى الله عليه وسلم « بسيد الكونين

والتقلين»، فإن شوقي يراه « أمير الأنبياء»، يقول من أبيات المديح النبوي:

لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ يُمَسِّكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَغْتَنِمُ
 مُحَمَّدٌ صَفْوَةَ الْبَارِي وَرَحْمَتَهُ وَيُغَيِّهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمٍ
 وَصَاحِبُ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسُلِ سَائِلَةٌ مَتَى الْوُرُودُ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِي
 سَنَاؤُهُ وَسَنَاءُ الشَّمْسِ طَالِعَةٌ فَالْجِرْمُ فِي فَلَكَ وَالضَّوْءُ فِي عِلْمٍ (٩٧)

هاهنا نلمح شوقي في آخر الأبيات يتناص مع البوصيري حيث يقول في همزيته:

لَمْ يُسَاوُوكَ فِي عُلاكَ وَقَدْحًا لَ سَنَى مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
 فقد استعار شوقي مفردتي: (السَّناء) و(السَّنا) من مُعْجَمِ البوصيري في المديح النبوي.

كذلك يُجْمَلُ شوقي خبر اعتراف (بحيرا) الرَّاهِبِ بنبوة مُحَمَّدٍ:

لَمَّا رَأَهُ (بَحِيرَا) قَالَ نَعْرِفُهُ بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسِّيَمِ
 حيث فصلها البارودي في ميميته « كشف الغمة في مدح سيد الأمة »:

وَقَالَ عَنْهُ (بَحِيرَا) حِينَ أَبْصَرَهُ بِأَرْضِ بَصْرَى مَقَالًا غَيْرَ مُتَّهَمٍ
 بِأَنَّهُ خَاتَمُ الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَمَنْ بِهِ تَزُولُ صُرُوفُ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ (٩٨)

وقد لاحظنا أن شوقي تأثر البوصيري والبارودي في بعض الصيغ والعبارات، ولكنه أتى بها في سياق متفرد على نحو جديد، وفي مقامٍ رُوحِي بلغ بها الغاية من التميز والعذوبة:

وَنُودِي إِقْرَأْ تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمٍ
 هُنَاكَ أَذُنٌ لِلرَّحْمَنِ فَاِمْتَلَأَتْ أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّعْمِ (٩٩)

ويتناص شوقي مع البوصيري، بله يحتذيه، ويتأثره في صيغته، ومفرداته، كذا في حديثه عن معجزة القرآن الخالدة، وأنه تزداد آياته جدة وحياء تزيينهما العراقة والقدم:

فَاقَ الْبُدُورَ وَفَاقَ الْأَنْبِيَاءَ فَكَمَ بِالْخَلْقِ وَالْخَلْقِ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ عِظَمِ
 جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَاِنْتَصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمٍ
 آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُدٌ يَزِينُهُنَّ جَلالُ الْعِتْقِ وَالْقِدَمِ (١٠٠)

وإن كُنْتُ لأحتفظ للبوصيري هذه المرة بفضل السبق والفوق، وتلقائية التدفق الشعري، وروعة الصورة في الأصل، وهو النص المحتذى، حيث يقول:

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خُلُقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمَسٌ عَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيْمِ^(١٠١)

كذلك يتفوق البوصيري حيث يقول عن آيات القرآن :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةٌ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنِ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخَيِّرُنَا عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدَمِ
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفَرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاغْتَصِمِ^(١٠٢)

حادثة الإسراء :

ولقد مرت بنا أبيات البوصيري في البردة، واضحة التكريم والإجلال والإكبار لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها :

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاغٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَيْتٌ تَرْقَى إِلَى أَنْ نَلْتِ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمِ
وَقَدَمَتِكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلِ تَقْدِيمِ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مُؤَكِّبٍ كُنْتُ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ^(١٠٣)

أما التدفق التلقائي لعاطفة قوية، وأما الخروج من موقف المعارضة الشعرية إلى الإبداع الفني الذي يعبر عن صاحبه في شعرية التصوير، وشعرية اختيار الألفاظ، وبناء الجمل القوية، وشعرية النغم الأثير والموسيقا الأسرة، مع جلال المعنى تعبر بصدق وإيمان عن جلال الموقف السماوي، وتعكس في جلاء عاطفة الحب النبوي، أما كل أولئك فيلقانا من شوقي إعلاءً وإكباراً لسيد الرسل والأنبياء وهو يصور الإسراء على نحو لم يسبق إليه، يقول:

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكُهُ وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّقْوَا بِسَيِّدِهِمْ كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعِلْمِ
صَلَى وَرَاعَكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ وَمَنْ يَفْزُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمِمِ

جُبَّتِ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ عَلَى مَنْوَرَةٍ دُرِّيَّةِ الْجُجُمِ
حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَبِّتَيْهِ وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ (١٠٤)

إن هذه الأبيات بكل ما تضمنت من جمال معنوي روحي، ومن تصوير رفيع غير مسبوق، ومن أسلوب واضح الجدة، تحددت بالمتلقي لذة روحية، ونشوة وجدانية، تذوب معها النفس إعجاباً، وينبهر العقل إجلالاً.

التأدب مع أستاذ المادحين :

يتوجه أحمد شوقي بالنداء إلى « أحمد » النبي، يعلن عن الشرف الذي أدركه حين سمي باسم الرسول رفعة وسمواً، كذلك يعلن مكانة البوصيري وأستاذيته أمام رسول الله - وقد ناجاه - في تواضع مجلّ، وأدب جمّ، واعتراف بفائق قدرته، وجمال بردهته:

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي
الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعٌ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
اللَّهِ يَشْهَدُ أَنِّي لَا أُعَارِضُهُ مِنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرِمِ (١٠٥)

ولأن شأن الأعمال الأدبية التأثير والتأثر، والاستعارات المتبادلة، فقد كان من الطبيعي أن تلقانا في « نهج البردة » بعض العبارات والقوافي التي تأثرها من البارودي في كشف الغمة، فحيث يقول البارودي :

فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلْمِ (١٠٦)
فإن شوقي يستعير لقايفته عبارة البارودي حيث يقول :

دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلْمِ (١٠٧)
مضيفاً الجناس ما بين (السلام)، و(السَّلْم) : بمعنى الخضوع والانقياد :

وتلقانا في أواخر « نهج البردة » أبيات تجمع بين التوجّه إلى الله - تعالى - بالدعاء، وبين ذكر ما اتسم به النبي صلى الله عليه وسلم من صفات الورع، والإخلاص في العبادة، ورضا النفس، ويختتمها بالدعاء لآل بيته الكرام :

يَارِبِّ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرَ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ

مُحِيي اللَّيَالِي صَلَاةً لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا بِدَمْعٍ مِنَ الْإِشْفَاقِ مُنْسَجِمٍ
 مُسَبِّحًا لَكَ جُنْحَ اللَّيْلِ، مُحْتَمَلًا ضُرًّا مِنَ السُّهْدِ، أَوْ ضُرًّا مِنَ الْوَرَمِ
 رَضِيَّةً نَفْسُهُ لَا تَشْتَكِي سَأْمًا وَمَا مَعَ الْحُبِّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأْمِ
 وَصَلَّ رَبٌّ عَلَى آلِ لَهُ نُحْبِبُ جَعَلْتَ فِيهِمْ لَوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
 بَيْضِ الْوُجُوهِ، وَوَجْهَ الدَّهْرِ ذُو حَلِكٍ شَمَّ الْأَنْوَفِ، وَأَنْفَ الْحَادِثَاتِ حَمِي^(١٠٨)
 وفي آخر الأبيات لا يخفى جمال التقسيم.

إن قيماً من الصفاء اللغوي في البيت الشعري، ومن العذوبة في الأسلوب،
 والجمال في الموسيقى، تغشى صنعة شوقي في معزوفته « نهج البردة »،
 يضاف إلى ذلك عبقرية الاحتذاء، وروعة الاستمداد من التراث الفني السابق
 على قصيدته، وإنَّ لَذَّةَ فَنِيَّةٍ رَفِيعةً تُدْرِكُ قَارِئَهُ إِعْجَابًا وَاقْتِرَابًا.
 رحم الله شوقي لقد ضاعف لذتنا الروحية بقصائده الأثيرة حباً وقرناً وإجلالاً
 لنبي الأمة صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش :

- (١) انظر: د. محمود علي مكي، المدائح النبوية، ط. الأولى، القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٠١.
- (٢) " وكان فقيهاً مالكيًا وشاعرًا ولد بتوزر (في تونس) وأخذ عن علماء القيروان، ثم رحل إلى مصر، وخاض هناك معركة ضد الفرنج، وعاد إلى توزر، حيث اشتغل بالتدريس والإفتاء إلى أن توفي سنة ٤٦٦ هـ "، د. مكي، المدائح النبوية، ص ١٠١.
- (٣) المرجع نفسه.
- (٤) المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٢.
- (٥) المرجع السابق، ص ١٠٣.
- (٦) المرجع نفسه.
- (٧) المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٨) د. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، الشام، ط. الثانية، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٢٧٧.
- (٩) المرجع نفسه، وانظر د. مكي، المدائح النبوية، ص ١٠٦.
- (١٠) د. مكي: المدائح النبوية، ص ١٠٦.
- (١١) المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٧.
- (١٢) الشوقيات ١/١٩٩-٢٠٠.
- (١٣) انظر في البوصيري: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ط. الثانية، القاهرة ١٩٧٧م، ٥/٨١-١٠٤؛ ومقدمة ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط. الثانية، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥-٤٧؛ شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، مصر، ط. الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٣٦١-٣٦٥؛ د. محمود علي مكي، المدائح النبوية، ص ١٠٧-١١٩.
- (١٤) د. محمود علي مكي، المدائح النبوية، ص ١٠٩.
- (١٥) د. شوقي ضيف: من المشرق والمغرب بحوث في الأدب، مقالة: مشاركة الصوفية في الجهاد ونشر الإسلام، ط. الأولى، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٧٣.
- (١٦) ديوان البوصيري، ص ٤٩-٥٠.
- (١٧) الديوان، ص ٥٠.
- (١٨) المصدر نفسه.
- (١٩) المصدر نفسه.
- (٢٠) الشوقيات ١/٣٤ - ٣٥.

- (٢١) ديوان البوصيري، ص ٥١.
- (٢٢) الشوقيات ٧/٢.
- (٢٣) الشوقيات ٣٩/١.
- (٢٤) انظر في معلقة الحارث: التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، ط. الثانية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٤٢٩.
- (٢٥) المصدر السابق، ص ٤٣١.
- (٢٦) انظر: التبريزي، شرح القصائد العشر، ص ٤٥٧-٤٦١.
- (٢٧) ديوان البوصيري، ص ٦٣.
- (٢٨) المصدر السابق، ص ٥٢.
- (٢٩) المصدر السابق، ص ٥٣.
- (٣٠) المصدر السابق، ص ٦١.
- (٣١) المصدر السابق، ص ٦٢.
- (٣٢) المصدر نفسه.
- (٣٣) ديوان البوصيري، ص ٦٨.
- (٣٤) المصدر السابق، ص ٦٩.
- (٣٥) المصدر السابق، ص ٧١.
- (٣٦) المصدر السابق، ص ٥٤.
- (٣٧) المصدر السابق، ص ٧٥.
- (٣٨) المصدر السابق، ص ٧٦.
- (٣٩) انظر: إبراهيم ناجي، ديوانه " ووراء الغمام "، ط. أولى، ١٩٣٤م.
- (٤٠) ديوان البوصيري، ص ٨٣.
- (٤١) د. شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، من مقالة عن: مدائح البوصيري، ط. الثانية، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٢٣٩.
- (٤٢) انظر: عبدالله التطاوي: المعارضة الشعرية بين التقليد والإبداع، ط. الأولى، القاهرة ١٩٨٨م، ص ١٠٢-١٠٣.
- (٤٣) د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص ٢٣٧.
- (٤٤) ديوان البوصيري، ص ٢٢٠.
- (٤٥) د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص ٢٣٧-٢٣٨.
- (٤٦) ديوان البوصيري، ص ٢٢١.

(٤٧) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٤٨) و(٤٩) فيما ورد في فضل القرآن عن الجملة: أخرج الترمذي والدارمي وغيرهما عن طريق الحارث الأعور، عن علي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ستكون فتن، قلتُ فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ط. الثالثة، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥١م، ١٥١/٢.

(٥٠) ديوان كعب بن زهير، ط. بيروت ١٩٩٥م، ص ٨٥.

(٥١) ديوان البوصيري، ص ٢٢٩.

(٥٢) ديوان كعب بن زهير، ص ٨٩.

(٥٣) ديوان البوصيري، ص ٣٣١.

(٥٤) ديوان البوصيري، ص ٢٢٧.

(٥٥) ديوان البوصيري، ص ٢٣٠، قلته البيع أقيئُهُ، أي فسخته. واستقال: طلب إليه أن يُقيئَهُ. والتمويل: كثرة المال.

(٥٦) ديوان البوصيري، ص ٢٣٠. تحويلٌ: تملك. التبتيل: الانقطاع إلى الله عن الدنيا. الرأبيل: جميع رثال، وهو الأسد.

(٥٧) انظر: د. زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، ط. الأولى، بيروت ١٩٩٢م، ص ١٤٢-١٤٤.

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٤٧؛ وانظر قصيدته بالكشكول، ط. القاهرة ١٩٦١م، ١/١٩٩-٢٠٣.

(٥٩) ديوان ابن الفارض، تحقيق: د. عبدخالق محمود، ط. الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٧٩، ذي سلم: موضع معروف فيه شجر السلم، والواحدة سلمة. البارق: سحاب ذو برق. الزوراء: موضع بالمدينة قرب المسجد. العلم: جبل فرد شرقي الحاجر. أرواح: جمع ريح. نعمان: واد بين مكة والطائف. وجرة: موضع بين مكة والبصرة. وقصيدة ابن الفارض هذه غزلية في ثمانية عشر بيتاً.

- (٦٠) ديوان البوصيري، ص ٢٣٨.
- (٦١) انظر: زكي مبارك، المدائح النبوية، ص ١٣٤.
- (٦٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.
- (٦٣) انظر عينية ابن زريق في كتاب: بهاء الدين العاملي: الكشكول، ط. القاهرة ١٩٦١م، ١١٨/١ وما بعدها.
- (٦٤) ديوان البوصيري، ص ٢٤٥.
- (٦٥) و(٦٦) د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص ٢٥٢.
- (٦٧) المرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣.
- (٦٨) المرجع السابق، ص ٢٥٣-٢٥٤؛ وانظر: ديوان البوصيري، ص ٢٧٤-٢٧٥.
- (٦٩) في أحمد شوقي وشعره، انظر: كتابي د. شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث، ط. السابعة، القاهرة ١٩٧٧م، والأدب العربي المعاصر في مصر، ط. الرابعة، القاهرة ١٩٧١م، ص ١١٠-١٢٠؛ وأحمد شوقي: الشوقيات، أربعة أجزاء.
- (٧٠) مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ط. الثانية، القاهرة ١٩٨٣م، ٣/٢٩٥.
- (٧١) د. شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث، ص ٨١.
- (٧٢) و(٧٣) الشوقيات ١/٣٤.
- (٧٤) و(٧٥) و(٧٦) المصدر السابق ١/٣٥.
- (٧٧) الشوقيات ١/٢٠٠.
- (٧٨) الشوقيات ١/٣٥.
- (٧٩) الشوقيات ١/٣٥، ٣٦.
- (٨٠) الشوقيات ١/٣٨.
- (٨١) الشوقيات ١/٣٨، ٣٩.
- (٨٢) المصدر السابق، ١/٣٩.
- (٨٣) المصدر السابق، ١/٣٩، ٤٠.
- (٨٤) المصدر السابق، ١/٤١.
- (٨٥) المصدر السابق، ١/٦٩.
- (٨٦) أبو الطيب المتنبي، ديوانه، شرح عبدالرحمن البرقوق، ط. بيروت، د.ت، ٤/٢٣٨.
- (٨٧) الشوقيات ١/٦٩، ٧١.
- (٨٨) الشوقيات ١/٧١، ٧٢.

- (٨٩) ابن الفارض، ديوانه، تحقيق: د. عبدالخالق محمود، ط. أولى، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٨٩.
- (٩٠) البوصيري: ديوانه، ص ٢٣٩.
- (٩١) الشوقيات ١/١٩١؛ وانظر: د. زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، ص ١٣٤.
- (٩٢) الشوقيات، ٢/١٢٦.
- (٩٣) المصدر السابق، ١/١٩٣، ١٩٤.
- (٩٤) الشوقيات ١/٢١٧؛ وانظر: مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ط. الثانية، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٣/٣١١.
- (٩٥) من قصيدته : (بعد المنفى)، الشوقيات ١/٦٤.
- (٩٦) ديوان البوصيري، ص ٢٣٩.
- (٩٧) الشوقيات ١/١٩٤، ١٩٥.
- (٩٨) البارودي، كشف الغمة، ص ٨.
- (٩٩) الشوقيات ١/١٩٦.
- (١٠٠) المصدر السابق، ١/١٩٧.
- (١٠١) البوصيري، ديوانه، ص ٢٤١.
- (١٠٢) البوصيري، ديوانه، ص ٢٤٤-٢٤٥.
- (١٠٣) البوصيري، ديوانه، ص ٢٤٥.
- (١٠٤) الشوقيات ١/١٩٨.
- (١٠٥) الشوقيات ١/١٩٩-٢٠٠.
- (١٠٦) البارودي، كشف الغمة، ص ٤.
- (١٠٧) الشوقيات ١/٢٠٥.
- (١٠٨) المصدر السابق، ١/٢٠٧.